القواد والشجعان الأبطال يقول :

تمرُّ بك الأبطال كَلْمى هزيمة ... وَوَجْهُك وَضَّاحٌ وثغرك باسمُ
تَجاوَزْتَ مِقْدَار الشَّجاعَةِ والنُّهى ... إلى قول قومٍ : أنتَ بالغيب عالِمُ

وهذه الصورة يخطبها إسكندر المقدونى وقابليون وغيرهما من قواد الغرب فلا يقعون على مثلها ، وتراها تتهادى فى خطب ودّ سيف الدولة لتجعله فى قادة الدنيا وأبطال العالم ، وتهبه العلم بالغيب والمعرفة بالأقدار ، فهو يقف وسط المعارك الصاخبة ضاحكاً لأنه يملك الزمان بكفيه ، ويتحكم فى الحروب ببأسه ، وينتهى فى مدحه إلى غاية بعيدة المدى فيقول فيه :

القائمُ الملكُ الهادى الذى شهدتْ ... قيامه وهـداه العربُ والعجمُ
لا تطلبنَّ كريمـاً بعد رؤيته ... إنَّ الكرام بأسخاهم يدًا خُتِموا

وهكذا لم يترك واسطة لمديحه إلا بذلها ، فختم على غيره وسدّ الباب على الأسخياء الكرام وجعله خاتم الممدوحين ؛ ولكن النقاد على ذلك يرون أن هذا المديح متكسب يحثه المال وتدفعه العطايا ، يجامل باللفظ الضخم والعبارة المتينة ، ويصدر عن اللسان لا الجنان . وخيرٌ منه فى نظرهم مديح أبى فراس الحمدانى ، فقد كان من قريب إلى قريب وحبيب إلى حبيب ، يندفع عن صداقة وإعجاب خالص لا يعكره طلب ولا تفسده عطية ، إذ يقول فى سيف الدولة :

فليتكَ تَحْلُو والحَيَاةُ مَريرةٌ ... وليتَكَ تَرْضى والأنام غِضَابُ
وليتَ الذى بينى وبينكَ عامرٌ ... وبينى وبين العَالمينَ خرابُ
إذا صحَّ منك الودُّ فالكلّ هيّنٌ ... وكلُّ الذى فوق التّراب تُرَابُ

وهذا هو المديح العف الذى يطلب الود ويسعى إليه ويغليه عنده ، وكلّ